

الواحة الحزينة

دراسة أنثروبولوجية للتحويل في النسق الاقتصادي بمدينة ورقلة

The sad oasis

-an anthropological study of the transformation of the economic system in the city of Ouargla-

د . بوجراف بلال

boudjouraf.bilel@univ-ouragla.dz

جامعة ورقلة

ملخص:

تشهد مدينة ورقلة العديد من التحولات السوسيواقتصادية ، خاصة بعد التوطين النهائي للمجموعات البدوية في سبعينيات القرن الماضي ، لتصبح نسبة البدو اليوم بمدينة ورقلة منعدمة تماما ، ولتشهد بعدها تشكل حضري جديد ، وذلك بعد تحولها لأهم قطب اقتصادي في الوطن بعد تأميم المحروقات سنة 1971 م ، وتوافد أعداد كبيرة من مختلف مناطق الوطن بحثا عن فرص العمل ، في هذه الدراسة سنحاول الوقوف على بعض التحولات الحاصلة في النسق الاقتصادي التقليدي لمدينة ورقلة ، في البداية سنعرض على أثر اكتشاف الذهب الأسود (النفط) في تغير النسق الاقتصادي التقليدي ، ثم سنتعرض للوضعية الراهنة للواحات بمدينة ورقلة وتغير مكانتها من محور الحياة في الصحراء إلى مجال هامشي ، ثم سنناقش التحولات الحاصلة في نظام العمل ، والمهن الجديدة باعتبارها البديل المعيشي والاقتصادي للمجموعات التقليدية ، بعد تلاشي نسقهم الاقتصادي التقليدي وظهور نسق اقتصادي جديد ، إن اقتصاد الواحات اليوم بمدينة ورقلة يدفع ثمن مجاورته للحوض البترولي .

الكلمات المفتاحية : ورقلة ، الواحة ، التحويل الاقتصادي .

Abstract:

Ouargla is witnessing many socio-economic transformations, especially after the final settlement of the Bedouin groups in the 1970s, so that the proportion of the Bedouins today in Ouargla is completely nonexistent, and then witness a new urban formation, after its transformation into the most important economic pole in the country after the nationalization of hydrocarbons in 1971AD, and the arrival of Large numbers of different regions of the country in search of job opportunities. In this study, we will try to identify some of the transformations taking place in the traditional economic system of the city of Ouargla. At the beginning, we will review the impact of the discovery of black gold (oil) in changing the traditional economic pattern, then we will be exposed to the current situation For the oases in Ouargla, and its status changes from the axis of life in the desert to a marginal field, then we will discuss the transformations taking place in the work system, and the new occupations as the living and economic alternative to traditional groups, after their traditional economic system has faded and the emergence of a new economic system, the economy of the oases today in Ouargla pays a price Adjacent to the oil basin.

Key words: Ouargla, Al Waha, Economic Transformation

1- مقدمة :

ارتبط الاقتصاد التقليدي لحواضر الصحراء الجزائرية بالواحات ، فالمدينة الصحراوية " القصر " مجاورة للواحة ، وهي بمثابة شريان الحياة لها ، تفرعت عن هذا النسق الاقتصادي الفلاحي عدة نظم اقتصادية شكلت ملامح البناء الاجتماعي لهذه المجتمعات ، الذي بقي مستقرا نسبيا لقرون عديدة ، حتى سنة 1956 م ، حيث تم إكتشاف النفط وبداية استغلاله ، لتشهد مدينة ورقلة تحولات عميقة على مستوى النسق الاقتصادي وبقية الأنساق الاجتماعية ، في هذه الدراسة حاولنا الكشف عن بعض هذه التحولات ، في مقارنة أنثروبولوجية اعتمدنا فيها على البحث الكيفي، والتحقيق الميداني بالاعتماد على المقابلات والمحاويرات والإخباريين والملاحظة ، انطلاقا من تساؤل رئيس حول أهم الأسباب التي جعلت " الواحة الجنة " تتحول إلى مجال هامشي ؟ وكذلك تحديد أهم ملامح التوجهات المهنية الجديدة ؟

2- إكتشاف الذهب الأسود وتغير النسق الاقتصادي :

ساهم القرن العشرين بشكل معتبر في توسع رقعة هذا البلد في اتجاه الجنوب ، وهذا بسبب إكتشاف حوض بيطرولي كبير ، أرادت له الجيولوجيا أن يتخذ من مركز جنوب منطقة ورقلة موقعا وقد بدى في إستغلاله منذ 50 سنة - سنة 1956 - ، بحيث أعطى لنفسه المكانة التي جعلت منه مركزا تقنيا واقتصاديا لمدينة جديدة هي حاسي مسعود ، بيد أنه غير شروط الحياة إلى حد كبير بورقلة وحتى في منطقة واد امية بأكملها ، ساحبا إياها في مسيرة حثيثة إجبارية نحو الحداثة ، وهكذا عرفت ورقلة دفعا جديدا (مارك كوت ، 2016، ص 7).

في 24 فيفري 1971 تم تأميم المحروقات من طرف الرئيس الراحل هواري بومدين رحمه الله ، مما سمح بتكثيف وتوسيع الأنشطة في حوض حاسي مسعود ، توازيا مع تكثيف هذه الأنشطة ذات الصلة بالمحروقات شهد النمو الاقتصادي طفرة هائلة أسفرت عن إنشاء مجموعة من البنى التحتية الاجتماعية ، أحدثت تحولا ثقافيا واقتصاديا ، وبالتالي خلق بيئة معيشية جديدة تتكيف مع الوضع الجديد (*ministere de la culture*, 2013, p31)

إن إكتشاف النفط بمنطقة ورقلة وبداية استغلاله هي المحطة الفاصلة بين النسق الإقتصادي التقليدي بحاضرة ورقلة ، والنسق الاقتصادي الجديد المنبثق عن النشاطات ذات الصلة باستخراج المحروقات واستغلالها ، وما رافق ذلك من مشاريع تنموية مست كل القطاعات في إطار مساعي الدولة لتنمية الجنوب. يؤثر النسق الاقتصادي في بقية الأنساق الأخرى ويلعب دور كبير في صياغة العلاقات الاجتماعية ، إن العلاقات و النظم الاجتماعية التقليدية بمدينة ورقلة كانت شديدة الصلة بـ " اقتصاد الواحة " ، فأجور حراس أبواب القصر مثلا ، كانت قفة من التمر عن كل أسرة من أسر القصر في فترة جني التمر ، بل إن فترة تلقيح التمر خلال فصل الربيع ، هي فترة الزواج والأعراس لسكان ورقلة في دلالة رمزية مفادها أن استمرار هذا المجتمع مرهون باستمرار إنتاج التمر .

الفلاحة اليوم تعيش حالة هجران ، ولم تعد هي محور معيشة الورقلي ، والنمط التجاري التقليدي للبدو المتمدين تلاشى منذ عقود ، و أصبح الاعتماد شبه الكلي في توفير مختلف الاحتياجات المعيشية مرتبط

بما توفره الدولة من مناصب عمل ، سواء في الشركات ذات الصلة بأنشطة استغلال المحروقات ، أو الوظائف المتوفرة في القطاعات الأخرى ، بالإضافة إلى الأنشطة التجارية والخدمات الحديثة .

3- الواحة " من جنة الصحراء إلى مكان للتفريغ " :

لعبت النخلة ومشتقاتها دورا كبيرا وهاما في حياة سكان وادي امية ووادي ريغ ولمنيعة ، استعملت في الاحتياجات المنزلية والبستان والأشغال العامة والألعاب ، كما استعملت مشتقاتها في تصفية الدهن والحليب ومياه الخندق ، وتخفيض نسبة الملوحة وتمتين السدود المائية والخنادق وربط العيون ومع الطين يسد بها ينابيع الماء .

كان الورقلي يعتني بالنخلة ويحافظ عليها ، يطعمها ويسقيها بتقنيات محسوبة في أوقات معينة مما جعل منتوجه يختلف مذاقه عن منتوج المناطق القريبة منها ، فمثلا تمر بوسحاك تختلف تماما عن تمر الشط وعجاجة وعين القديمة وبني ثور ونقوسة ، وأكثر طولا وحجما ، إن نسبة الملوحة في تمر ورقلة جعلتها قابلة للادخار إلى خمسة سنوات دون أن يفسد، حيث يتحول من لونه الأحمر إلى الذهبي ويسمى "لقبوري" . في سنة 2008 جمعنا - عبد الرحمان حاجي - من ورقلة لوحدها 86 نوعا من التمر بالصورة ، ويرجح أن عددها 110 كأقصى تقدير (حاجي عبد الرحمان ، 2011 ، ص 260-262).

إن واحات مدينة ورقلة اليوم ليست على تلك المكانة التي كانت عليها سابقا ، حيث كانت محور الحياة خاصة لسكان القصور ، وبالأخص الواحات المحيطة بالمدينة القديمة - القصر العتيق - والواحات المجاورة لأحياء القبائل البدوية المتوطنة ، جنة الأمس هي اليوم مكان لتفريغ الردم ، طالها الهجران والإهمال ، بل قد تجد من يتعمد حرق العشرات من أشجار النخيل ، ليحل مكانها الاسمنت والآجر .

الرمي العشوائي للرمد ومخلفات ورشات البناء (تصوير الباحث)



من خلال عدة مقابلات مع إخباريين و حورات مع بعض ملاك هذه الواحات حول هذه الوضعية المؤسفة التي آلت إليها الواحة اليوم ، يمكن أن نرجع ذلك لثلاثة أسباب وهي :

1- عزوف الأجيال الحالية عن مهنة الفلاحة :

إن الرغبة في العمل في مناصب برواتب عالية ، كرواتب الشركات البترولية جعل الأجيال الجديدة تهجر الأنشطة الفلاحية ، وكأن الواحة اليوم تدفع ثمن مجاورتها لحاسي مسعود ، إن تمثلات شباب اليوم حول العمل هي " الريح السريع وبأقل جهد ووقت ! " ، وهو ما لا توفره مداخل إنتاج التمر .

2- التوسع العمراني على حساب الواحات :

إن النمو السكاني المتزايد وعدم توفر أوعية عقارية للبناء في أحياء مثل القصر العتيق وسيدي عمران وبني ثور وسعيد وغيرها ، دفع بعض ملاك هذه الواحات إلى استغلال مساحات معتبرة منها في بناء مساكن ، وكذلك بناء ما يشبه حظائر كبيرة واستغلالها في أنشطة تجارية كبيع مواد البناء أو تأجيرها ،
التوسع العمراني بواحات ورقلة (تصوير الباحث)



3- تفتيت مساحات الواحات بفعل التوريث :

وجود عدد كبير من الورثة لساتين النخيل وسع من اختلافهم حول كيفية استغلالها ، إلى حد الوصول إلى النزاعات القضائية ، فهناك من يريد بيعها ، وورث آخر يريد بناء منزل في جزء منها ، والبعض يفضل استغلالها في الفلاحة (ز ، ل - إخباري رئيسي ، مقابلة بتاريخ 25-10-2019) ، حتى صارت اليوم مهجورة وفي حالة جمود وركود ، كما هو حال واحة بني إبراهيم في الناحية الشمالية للقصر وواحات أخرى كثيرة .

يمكن أن نستثني مما سبق بعض واحات حاسي بن عبد الله ، والتي أنشئت في شكل مستثمرات فلاحية - خلال مشروع الثورة الزراعية في سبعينيات القرن العشرين - ومع ذلك فهي ليست في مستوى المقومات المتاحة بمنطقة ورقلة لإنتاج التمور ، والتي جعلتها تأخذ اسم الواحات خلال القرون السابقة ، بل إن منتوج التمور المتوفر اليوم بأسواق ورقلة أغلبه يأتي من مدينة بسكرة ووادي سوف .

إن إهمال الأجيال المعاصرة للفلاحة بمدينة ورقلة له أبعاد ثقافية عميقة ، فتمثلاتهم للفلاحة على أنها نشاط يرتبط بالحياة الريفية والبدوية ، ويتناقض مع الحداثة ونمط العيش في المدينة ، جعلهم يفضلون الأنشطة الأخرى التي تتلاءم مع حياة المدينة - حسب تصوراتهم - حتى لو كان عائدها المالي أقل من

أرباح الأنشطة الفلاحية ، بينما نجد البلدان الأكثر تحضرا وحدثة كاليابان وأمريكا وفرنسا ، تعتمد في اقتصادها أساسا على الفلاحة .

4- العمل والمهن الجديدة :

بتحول هيكل النشاطات والمهن في مدن الجنوب لم تعد الفلاحة هي الحرفة الرئيسية لسكان الواحات القدامى والتي طالما كانت سببا لوجودهم ، في أحسن الأحوال أصبحت اليوم مجرد نشاط مكمل لميزانيات بعض الأسر، هذا إن بقيت لبعضها ملكيات بساتين النخيل التي انتهت إلى البيع أو الزحف العمراني، أو التفتت بالميراث ، إن تحول هيكل الأنشطة الاقتصادية غير كثيرا هذا المجتمع التقليدي في ظرف عقود قليلة بعد الاستقلال ، بتأثير التحولات الاقتصادية والسياسية ، أهمها اكتشاف النفط بمنطقة حاسي مسعود سنة 1956 إذ توجه كثيرا ممن كانوا فلاحين أباً عن جدٍ ، إلى العمل في شركات النفط ، مما سبب نزيفا كبيرا في اليد العاملة والخبرة الفلاحية استقطبتها هذه الشركات وغيرها من الوظائف الجديدة ، لقد غير هذا كثيرا في نمط حياة الفلاحين القدامى خاصة ، وفي تركيبة الأسرة ودور المرأة والعلاقات الاقتصادية والاجتماعية (خليفة عبد القادر ، 2012 ، ص 6).

إن التغيير في النمط الاقتصادي من الفلاحة وتجارة القوافل إلى الاقتصاد النفطي ، وما أفرزه من أنشطة تنموية في كل القطاعات ، أدى إلى التحول في النظم الاقتصادية ، ومن بينها نظام العمل . إن ما توفره الشركات البترولية و الورشات التابعة لها من مناصب عمل برواتب " مغرية " مقارنة مع الأعمال الأخرى المتاحة في سوق العمل ، جعلها محل " تنافس " بين طالبي الشغل من أبناء مدينة ورقلة وكذلك من باقي مناطق الوطن .

إن تلاشي النظم الاقتصادية التقليدية للبدو المتوطنين بعد استقرارهم وزوال " تجارة القوافل " ، وسعيهم للاندماج في الحضرية الجديدة وإيجاد البديل الاقتصادي لم يكن بالأمر السهل ، إن قيم البدوي وتمثلاته حول " كسب قوت العيش " تزدري الأعمال المستقرة " والتي أصبحت " حتمية " لا مفر منها ، جعلت بعض المهن تستهويهم على حساب مهن أخرى .

إن المجموعات التقليدية بمدينة ورقلة تفضل العمل في الشركات التابعة للأنشطة البترولية ، على حساب التجارة والأعمال الحرة ، و الوظيف العمومي، وهو نفس التوجه المهني لدى الوافدين ، إلا أن الكثير منهم يتوجه للتجارة والأعمال الحرة ، والمهن اليدوية .

إن هذه المعطيات تؤكد أن العوامل السوسيوثقافية محدد رئيسي للاختيارات والتوجهات المهنية اليوم في مدينة ورقلة ، إن الملاحظ على الوافدين والحضرين القدامى " الوراقلة " اندماجهم السريع في ما يوفره سوق العمل دون أن يكون لهم توجه محدد لا يرضون بديلا عنه ، فأى عمل يلبي الاحتياجات الاجتماعية ، ويكون مصدر دخل مرضي لهم هو ما يبحثون عنه ، على العكس من ذلك نجد الأجيال الحضرية للبدو المستقرين ذوي توجهات مهنية محددة ، تتسجم مع قيمهم الاجتماعية الموروثة ، وتمثلاتهم للعمل ، فالعمل ك " سائق " أو " عون أمن " في شركة بترولية ، أو في بعض الأنماط التجارية الجديدة الرسمية وغير الرسمية ، والتي تعتمد على التنقل - بوسائله الحديثة - ، أو أي عمل لا يترتب عليه استقرار مستمر في

مكان محدد ، هو العمل المفضل ، وكأنه " الحنين للماضي " خاصة و أن القبائل البدوية بورقلة استقرت مكرهة لا مختارة ، بداية من التواجد الاستعماري وعمله بكل الطرق على تثبيتهم لكسر مقاومتهم باعتبار تنقلهم في الصحراء وإلى الشمال يشكل خطر على الجنود الفرنسيين ، وكذلك ليسهل التحكم بهم بعد استقرارهم ، ثم لتأتي مرحلة الاستقلال ويزحف عمران المدينة لديارهم ، ويصبح استقرارهم النهائي هو المصير المحتوم .

إن ظهور نظام العمل المأجور في المؤسسات التابعة للدولة - الوظيفة العمومي - أو المؤسسات الخاصة بالإضافة للتحويلات في النسق الإقتصادي العام ، والتي أشارنا إليها في ما سبق ، أحدثت تغيير بنائي في النسق الاجتماعي العام ، وأدى ذلك إلى زوال بعض الأدوار الاجتماعية وتغيير بعضها ، ومن أبرزها انخراط المرأة الورقالية في سوق العمل ، حيث أصبحت النساء العاملات في بعض القطاعات أكثر عددا من الرجال ، كقطاع التربية والتعليم .

إن ولوج المرأة الورقالية في سوق العمل لم يحدث تغيير في بنية الأسرة الورقالية فقط ، بل كان له أثره الواضح في بنية المجموعة القبلية بشكل عام ، فاندماجها في النمط الحضري الجديد عن طريق العمل أتاح لها نمط حياة يعطيها مجال أكثر حرية ومتعدد الخيارات - كالزواج الخارجي مثلا - عكس نمط الحياة التقليدي في ضوء سلطة النظم والقيم الاجتماعية للمجموعة التي تنتمي إليها ، فهذه " الهوية الحضرية الجديدة " للمرأة الورقالية تعتبر مؤشر على التفكك والتحلل القبلي الحاصل في بنية المجموعات التقليدية بمدينة ورقلة.

قائمة المراجع :

- 1- حاجي عبد الرحمان:(2011)، ورقلة تاريخ وحضارة ، ج 2 ، مطبعة دار الصحافة ، ورقلة .
- 2- خليفة عبد القادر:(2012)، حضرية مدن الصحراء الجزائرية ، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية ، العدد 8 ، جامعة ورقلة.
- 3- مارك كوت:(2016) الجغرافيا المصغرة لمنطقة ورقلة ، تر الهادي دادن ، منشورات جمعية الثقافة والإصلاح ، ط 1 ، ورقلة.
- 4- ministere de la culture .(2013) ouargla authenticite et elegance . cdsp editions . alger .